

٢ - صعايلك الصحافة . . .

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وغاب شيخنا أبو عثمان عند رئيس التحرير بعض ساعة ثم رجع تدور عيناه في جحافلهم وقد اكفهر وجهه وعبس كأنما يجري فيه الدم الأسود لا الأحمر، وهو يكاد ينشق من الغيظ وبعضه يغلى في بعضه كالماء على النار. فما جلس حتى جاءت ذبابتان فوقتا على كنفتي أنفه تستيمان كتابة وجهه المشوه، فكان منظرهما من عينية السوداءين الجاحظتين منظر ذبابتين ولدتا من ذبابتين . . .

وتركهما الرجل لشأنهما وسكت عنهما. فقلت له: يا أبا عثمان هاتان ذبابتان ويقال إن الذباب يحمل العدوى

فضحك ضحكة المغيظ وقال: إن الذباب هنا يخرج من المطبعة لا من الطبيعة . . . فأكثر القول في هذه الجرائد حشرات من الألفاظ: منها ما يستقدر، وما تنقلب له النفس، وما فيه العدوى، وما فيه الضرر؛ وما بد أن يعتاد الكاتب الصحافي من الصبر على بعض القول مثلما يعتاد الفقير من الصبر على بعض الحشرات في ثيابه. وقد يريده صاحب الجريدة أو رئيس التحرير على أن يكتب كلاماً لو أعفاه منه وأراده على أن يجمع القمل والبراغيث من أهدام الفقراء والصعايلك بقدر ما يملأ مقالة . . . كان أخف عليه وأهون، وكان ذلك أصرح في معنى الطلب والتكليف (١).

وكيف دار الأمر فإن كثيراً من كلام الصحف لو مسخه الله شيئاً غير الحروف المطبعية، لطار كله ذباباً على وجوه القراء.

قلت. ولكنك يا أبا عثمان ذهبت مستطلقاً إلى رئيس التحرير ورجعت متعقداً فما الذي أنكرت منه؟

قال: لو كان الأمر على ما يشتهي الفرير والجاهل بعواقب الأمور لبطل النظر وما يشهد عليه وما يدعو إليه، ولتعطلت الأرواح من معانيها والعقول من ثمارها، ولعدمت الأشياء

حظوظها وحقوقها، (١). هناك رجل من هؤلاء المعنيين بالسياسة كما هي السياسة في هذا البلد . . . يريد أن يخلق في الحوادث غير معانيها، ويربط بعضها إلى بعض بأسباب غير أسبابها، ويخرج منها نتائج غير نتائجها، ويلفّق لها من المنطق رقعا كذه الرقع في الثوب المفتوق، ثم لا يرضى إلا أن تكون بذلك رداً على جماعة خصومه وهي ردة عليه وعلى جماعته، ولا يرضى مع الرد إلا أن يكون كالأعاصير تدفع مثل تيار البحر في المستنقع الراكد ثم لم يجد لها رئيس التحرير غير عمك أبي عثمان في لطافة حسه وقوة طبعه وحسن يانه واقتداره على المعنى وضده، كأن أبا عثمان ليس عنده من يحاسبون أنفسهم ولا من المميزين في الرأي، ولا من المستدلين بالدليل، ولا من الناظرين بالحجة. وكان أبا عثمان هذا رجل حروفي . . . كحروف المطبعة ترفع من طبقة وتوضع في طبقة وتكون على ما شئت. وأدنى حالاتها أن تمد إليها اليد فإذا هي في يدك

وأنا امرؤ سيد في نفسي وأنا رجل صدق ولست كهؤلاء الذي لا يتأثمون ولا يتذمّمون؛ فإن خضت في مثل هذا اتقص طبعي وضعفت استطاعتي وتبين النقص فيما أكتب، ونزلت في الجهتين فلا يطرد لي القول على ما يرجو ولا يستوى على ما أحب. فذهبت أناقضه وأردت عليه؛ فبُهِتَ ينظر إلى ويقلب عينيه في وجهي كأن الكاتب عنده خادم رأيه كخادم مطبخه وطعامه هذا من هذا

ثم قال لي: يا أبا عثمان إني لأستحي أن أعنفك. وبهذا القول لم يستح أن يعنف أبا عثمان . . . ولهممت والله أن أنشده قول عباس بن مرداس:

أَكَلَيْبُ... مَالِكُ كُلِّ يَوْمٍ ظَلَمًا وَالظَلَمُ أَنْكَدُ وَجْهَهُ مَلْعُونٌ...
لَوْلَا أَنْ ذَكَرْتُ قَوْلَ الْآخَرِ:

وَمَا بَيْنَ مَنْ لَمْ يُعْطِ سَمْعًا وَطَاعَةً وَبَيْنَ تَعَمُّرٍ غَيْرِ حَزِّ الْغَلَاصِمِ
حَزُّ الْغَلَاصِمِ وَقَطْعُ الدَّرَاهِمِ، مِنْ قَافِيَةٍ وَاحِدَةٍ... وَقَالَ
سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ: «لَا يَكُونُ لِي نِصْفُ وَجْهِ وَنِصْفُ لِسَانٍ
عَلَى مَا فِيهِمَا مِنْ قَبْحِ الْمَنْظَرِ وَعَجْزِ الْخَبَرِ - أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكُونَ

(١) هذه الجملة من كلام الجاحظ.

(١) هذه طريقة الجاحظ في الإفراق بين بهم.

ذا وجهين وذا لسانين وذا قرلين مختلفين . . وقال أيوب السخيتاني ...

وهم شيخنا أن يمر في الحفظ والرواية على طريقته ، فقلت : وقال رئيس التحرير ... ؟

فضحك وقال : أما رئيس التحرير فيقول : إن الخلافة والمواربة وتقليب المنطق هي كل البلاغة في الصحافة الحديثة ، ولهي كقلب الأعيان في معجزات الأنبياء صلوات الله عليهم ، فكما انقلبت العصا حية تسعى ، وهي عصا وهي من الخشب ، فكذلك تنقلب الحادثة في معجزات الصحافة إذا تعاطاها الكاتب البليغ بالفطنة العجيبة والمنطق الملوّن والمعرفة بأساليب السياسة ، فتكون للتهويل وهي في ذاتها اطمئنان ، وللهمة وهي في نفسها براءة ، وللجناية وهي في معناها سلامة . ولو نفخ الصحافي الحاذق في قبضة من التراب لاستطارت منها النار وارتفع لهبها الأحمر في دخانها الأسود . قال : وإن هذا المنطق الملوّن في السياسة إنما هو إتقان الحيلة على أن يصدقك الناس ، فإن العامة وأشباه العامة لا يصدقون الصدق لنفسه ولكن للغرض الذي يساق له ، إذ كان مدار الأمر فيهم على الإيمان والتقديس ، فأذفهم حلاوة الإيمان بالكذب فلن يعرفوه إلا صدقا وفوق الصدق ، وهم من ذات أنفسهم يقيمون البراهين العجيبة ويساعدون بها من يكذب عليهم متى أحكم الكذب ، ليحققوا لأنفسهم أنهم بحثوا ونظروا ودفقوا ...

ثم قال أبو عثمان : ومعنى هذا كله أن بعض دور الصحافة لو كتبت عبارة صريحة للاعلان لكانت العبارة هكذا : سياسة للبيع

... ..

قلت : يا شيخنا فأنك هنا عديم لتكتب كما يكتبون ، ومقالات السياسة الكاذبة كرسائل الحب الكاذب تُقرأ فيها معان لا تكتب ، ويكون في عبارتها حياء وفي ضمناها طلب ما يُستحي منه ... والحوادث عديم على حسب الأوقات ، فالأبيض أسود في الليل والأسود أبيض في النهار ، ألم تر إلى فلان كيف يصنع وكيف لا يعجزه برهان وكيف يخرج المعاني ؟

قال : بلى نعم الشاهد هو وأمثاله . إنهم مصدقون حتى في تاريخ حفر زمزم

قلت : وكيف ذلك ؟

قال : شهد رجل عند بعض القضاة على رجل آخر ، فأراد هذا أن يجرح شهادته ، فقال للقاضي : أتقبل منه وهو رجل يملك عشرين ألف دينار ولم يحجّ إلى بيت الله ؟ فقال الشاهد : بلى قد حججت . قال الخصم : فأسأله أيها القاضي عن زمزم كيف هي ؟ قال الشاهد : لقد حججت قبل أن تحفر زمزم فلم أرها ...

قال أبو عثمان : فهذه هي طريقة بعضهم فيما يزكي به نفسه ؛ ينزلون إلى مثل هذا المعنى وإن ارتفعوا عن مثل هذا التعبير ؛ إذ كانت الحياة السياسية جدلا في الصحف لنفي المنفي وإثبات المثبت ، لأعمالا يعملونه بالنفي والاثبات . ومتى استقلت هذه الأمة وجب تغيير هذه الصحافة وإكراهها على الصدق فلا يكون الشأن حينئذ في إطلاق الكلمة الصحافية إلا من معناها الواقع . والحياة المستقلة ذات قواعد وقوانين دقيقة لا يترخص فيها مادام أساسها إيجاد القوة وحيطة القوة وأعمال القوة ، ومادامت طبيعتها قائمة على جعل أخلاق الشعب حاكمة لا محكومة . وقد كان العمل السياسي إلى الآن هو إيجاد الضعف وحيطة الضعف وبقاء الضعف ؛ فكانت قواعدنا في الحياة مغلوطة ، ومن ثم كان الخلق القوي الصحيح هو الشاذ النادر يظهر في الرجل بعد الرجل والفترة بعد الفترة ؛ وذلك هو السبب في أن عندنا من الكلام المنافق أكثر من الحر ، ومن الكاذب أكثر من الصادق ، ومن المارئي أكثر من الصريح ؛ فلا جرم ارتفعت الألقاب فوق حقائقها وصارت نعوت المناصب وكلمات باشا وبك من الكلام المقدس صحافياً ...

يا لعباد الله ! يأتهم اسم الأديب العظيم فلا يجحدون له موضعا في محليات الجريدة ؛ ويأتهم اسم الباشا أو البك أو صاحب المنصب الكبير فماذا تشرف المحليات ، إلا به ؟ وهذا طبيعي ، ولكن في طبيعة النفاق ، وهذا واجب ولكن حين يكون الخضوع هو الواجب . ولو أن للأديب وزنا في ميزان الأمة لكان له مثل ذلك في ميزان الصحافة ، فأنت ترى أن الصحافة هنا هي صورة من عامة الشعب ليس غير ... ومن ذا الذي يصحح معنى الشرف العامل لهذه الأمة وتاريخها . وأكثر الألقاب عندنا هي أغلاط في معنى الشرف ... ؟

ثم ضحك أبو عثمان وقال : زعموا أن ذبابة وقعت في هارجه

حديث الأزهار

للكاتب الفرنسي الفونس كار
ترجمة الأستاذ فليكس فارس

(٢)

زهرة السلوان

حذار من زهرة السلوان ! إنها زهرة يصيبك بهاؤها وبقتلك
غيرها. إنها لزهرة تتشح الجلال وتكلف الابتسام ، تحدجك
بلفئات ساحرة لتستهويك وتقول لك : - تعال إلى ، فني الإخلاص
وفني العزاء .

رأيت رجلاً اقتطف زهرة السلوان من حقول الحياة بعد
أن عرفته هائماً تنقد في قلبه النار التي لا تيردون أن تحرق ،
فأصبح خلى البال يحدق في من كان يهواها فلا يفرح ولا يحزن ،
لا يلذه شيء ولا يتألم شيء .

ولكن السلوان لا يدخل وحده إلى القلب ، بل يجر معه
رفيقه الملازم له : يجر معه الضجر والملال . ومن اقتطف زهرة
السلوان يسير حزناً مطرقاً بالأرض لأنه لن يحب بعد ...

من سطا السلوان عليه فهو طريد لا قرار له
من ينس مرة فلن يحب أبداً
أرى الخلى يقطع السهول ويتسلق الروابي فيقف متضجراً
ينصت إلى تغريد الأطيوار ويسرح الطرف في أزهار الخائل
وجداول المروج متسائلاً أمام الطبيعة العاشقة عما أقدته عشقه ،
فتجيبه الطبيعة : لأنك قطفت زهرة السلوان

ويبكى هذا الطريد زماناً كان يبكي فيه إذ كان شقياً ، ولكن
قلبه لم يكن ساكناً لا حرارة فيه ولا خفوق

إن من الأمراض ما يفوق ألم شفاها آلام استفحالها
دلني على منابت زهرة السلوان لأجتنبها ، قل لي أين تنور
لأحوّل طريق عنها

هي زهرة تصفها اسم لها ؛ تنبت في الأماكن الموحشة المقفرة ،
وقد تنمو في المدن بين الحركة والضجيج ، غير أن جرثومتها
عالقة في عالم الخيال في أسرار حياة الموت وموت الحياة
هي زهرة الضجر والملال والعذاب ، زهرة السلوان

(أميرال) انجليزى أيام الحرب العظمى ؛ فرأت القائد العظيم
وقد نشر بين يديه درجاً من الورق وهو يخطط فيه رسماً من
رسوم الحرب . ونظرت فإذا هو يلقي النقطة بعد النقطة من
المداد ويقول : هذه مدينة كذا ، وهذا حصن كذا ، وهذا ميدان
كذا . قالوا فسخرت منه الذبابة وقالت : ما أيسر هذا العمل
وما أخف وما أهون ! ثم وقعت على صفحة يضاء وجعلت
تلقى ونيمها^(١) هنا وهناك تقول : هذه مدينة ، وهذا حصن ...

والتفت الجاحظ كأنما توهم الجرس يدق ... فلما لم يسمع
شيئاً قال :

لو أتى أصدرت صحيفة يومية لسميتها (الأكاذيب) ، فبهما
أكذب على الناس فقد صدقت في الاسم ، وبهما أخطى فلن
أخطى في وضع التناق تحت عنوانه
قال : ثم أخط تحت اسم الجريمة ثلاثة أسطر بالخط الثلث
هذا نصها :

ما هي عزة الأذلاء ؟ هي الكذب الهازل

- ما هي قوة الضعفاء ؟ هي الكذب المكابر

ما هي فضيلة الكذابين ؟ هي استمرار الكذب

قال : ثم لا يحرر في جريدتي إلا صعايلك الصحافة ، من
أمثال الجاحظ . ثم أكذب على أهل المال فأبجد الفقراء العاملين ،
وعلى رجال الشرف فأعظم العمال المساكين ، وعلى أصحاب
الألقاب فأقدم الأدباء والمؤلفين ...

ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير ...

لها بقية (طظا) مصطفى صاوي الرافعي

(١) وفيه الذباب هو ... أي هذه النقطة السود التي يحسها

وحي القلم

كثرت عندنا كتب إخواننا من قراء الطلبة . منهم من يريد الكتاب بقيمة
الاشتراك ، ومنهم من يريد نصف الثمن ، ومنهم من يطلبه بالدعوات الصالحات ...
فأعذر الجميع بأنني لم أنفق على طبع الكتاب وإنما أنفقت عليه لجنة التأليف
والترجمة والنشر . ولو كان (بولانكي) التي اليوناني المشهور يعرف الأدب
العربي ، لرجوته لم فأنتمى وأهدى إليهم .

ولكن بولانكي لا يعرف الأدب العربي ، ومثله جاكليس وماتوسيان .
ورجعت الله على أغنيائنا الامرات الذين نعرفهم وزارة الأوقاف والمال الله بقاء
الأعيان الذين لا يعرفهم أنا ولا يعرفهم احد من المؤلفين ...

الرافعي